سيمياء التطويع
مقاربة لخطاب الثورة في الشعر التونسي المعاصر

الأستاذ: محمد عروس
جامعة تبسة

يمثل البحث في آليات التطويع ومقوماته المحور الذي تقوم عليه سيمياء التطويع، وباعتبار الشعر خطابا ممارسا على الآخر، لحمله على تبني وجهات نظر معينة، واتخاذ مواقف من قضايا تمثل مجالا للصراع بين الفئات الاجتماعية، فيمكن أن نتخذ منه مادة لتطبيق سيمياء التطويع. ونظرا لتداعيات فكرة الثورة في الشعر التونسي المعاصر فسنسلط الضوء على موضوع الثورة في الشعر التونسي المعاصر من زاويتي الإظهار والإضمار من وجهة نظر سيمياء التطويع.

وعليه فإن الإشكالية التي نريد طرحها يمكن صياغتها في الآتي: إلى أي مدى يمكن أن تسمح سيمياء التطويع بفهم خطاب الثورة في الشعر التونسي المعاصر، وما هي مكونات هذا الخطاب؟ وذلك ما يمكن معالجته من خلال مجموعة من الإضاءات المفاهيمية والتطبيقية.

**ينظر الناس دائما إلى القطرة التي أفاضت الكأس، و لكنهم لا ينظرون إلى الماء الذي ملأه. وتستوقفهم عبارة القشة التي قصمت ظهر البعير، ولكنهم لا يتكلمون عن الحمل الذي هدّ كاهله. و يستثير انتباههم التغيرات التي تحصل في دنيا الناس، ولكنهم لا يعيرون اهتماما لأسباب ذلك. وقد قيل: الفتنة إذا أقبلت لا يراها إلا عالم، وإذا أدبرت يراها كل الناس. والأمر نفسه يمكن أن يقال عن الثورة، فإنها إذا تحققت يعلم أمرها كل الناس، ولكن عند إقبالها، لا يعلم أمرها، ويبشر بها إلا فصيح؛ فصاحة علم، أو شعر، أو رؤيا...

مدخل:

منذ أن صرخ أبو القاسم الشَّابِّي:

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بدّ أن يستجيب القدر

وخطاب ثورة يسري في الشعر التونسي، ولكن صوته يعلو أحيانا بالتعبير المباشر، ويختفي أحيانا وراء الرموز والإشارات. فمن الإلماعة السياسية الساخرة عند منصف المزغني، إلى استلهام الموروث ومساءلة الواقع من خلاله عند الميداني بن صالح، إلى تأملات عبد العزيز الحاجي وغيرهم من الشعراء، يجد الدارس إحساسا بمرارة الواقع؛ بكل تجلياته السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية. ويلمس السخرية من ذلك الواقع وضرورة الثورة عليه.

وستحاول هذه المداخلة الكشف عن الجزء المخفي من جبل الجليد. ذلك أن الثورة الشعبية التونسية التي اصطلح على تسميتها ثورة الياسمين، في ظل ما غدا يعرف بالربيع العربي، لم تكن وليدة صدفة تاريخية، إنما هي نتاج تراكم على شتى المستويات. وقد كان للشعراء الدور البارز في التعبير عن ذلك. وعليه سنسائل الشعر التونسي المعاصر والذي قيل قبل الثورة، للكشف عن الخطابات التي كان يحملها، والتطلعات التي كانت تعانق رؤى الشعراء وأحلامهم. إذ « الشعر لا يرضى بالراهن، وهو ابن اللحظات الحديثة التي تجمع بين الأزمنة في زمن التحول، الذي يرى في مرايا الحاضر ما ترهص به أخيلة المستقبل» .

إن النّار التي أُضْرِمَتفي نفس البوعزيزي قبل أن يُضْرِمَها في جسده، فأجّجت الثّورة وقلبت النّظام، كان بارودها جاهزا في كل بيت تونسي، مثلما كان صوتها مخبوءا في الأسطر الشعرية والدواوين الإبداعية. وليس أدلّ على ذلك من الشعار الذي رفعه التونسيون " الشعب يريد..." والذي اشتقت فكرته وملفوظاته من بيت الشّابّي الشهير. وقديما قيل:

ولولا خلال سنها الشعر ما درى بغاة الندى كيف تؤتى المكارم.

ويمكن بيان دور سيمياء التطويع في الكشف عن خطاب الثورة في الشعر التونسي المعاصر من خلال مجموعة من الإضاءات.

إضاءة أولى: في مفهوم سيمياء التطويع

تبحث سيمياء التطويع في الفعل الممارس على الآخر(الغير) لحثه على تنفيذ برنامج معين .وبالتالي فالتطويع « تواصل يسعى إلى دفع المتلقي(المُطَوَّع) إلى الموقف الذي يشعر فيه بأنه محروم من الحرية (عدم القدرة على الفعل)، ويجد نفسه بالتالي مرغما على سوغ الميثاق المعروض عليه وقبوله» . وعليه فسيمياء التطويع يمكن أن تكشف لنا الستار عن التواصل الذي يكون أساسه الصراع بين إرادتين؛ إرادة أولى تحمل برنامجا وتسعى إلى تطبيقه، وإرادة ثانية يتوجه لها هذا البرنامج وتقبله على سبيل الاختيار إن لم تكن لها القدرة على المقاومة، أو على سبيل الإجبار إن أبدت ممانعة لقبول البرنامج. إذ « ينطلق المطوِّع من موقع سلطته لإجبار الآخر على الامتثال لأوامره طوعا أو كرها » .

يمكن لسيمياء التطويع أن تكشف عن البنية الخفية للتغيرات الاجتماعية، وتكون الخطابات الإبداعية عادة الرحم الذي تتشكل فيه إرادة التطويع وقيمه الثقافية. وما المواقف المعلنة في نهاية المطاف أو الحروب الدائرة أو الثورات الحاصلة إلا نتاج تراكمات مبثوثة في سجل الكلام(تصريحات الساسة، نكت الجماهير، الشعر، القصة...).

يتخذ المطوِّع من سلبيات الآخر مادة لإقناع الذات ومن يدور في فلكها بجدوى البرنامج التطويعي الذي يتبناه، و يعمد إلى إرباك الآخر وإظهاره في موقع ضعيف. ويبني المطوِّع نتيجة لذلك رؤيته التغييرية كونه البديل أو الأصلح. وكل ذلك يجعل من موضوع الثورة في الشعر التونسي المعاصر مادة صالحة للبحث في تجليات التطويع كخطاب تتجاذبه ثنائية الإظهار والإضمار.

إضاءة ثانية: في مقومات سيمياء التطويع

تتمثل المقومات في الأسس التي يقوم عليها الشيء، وبالنظر إلى سيمياء التطويع فإن مقوماتها تتغير بتغير مجال التطويع وآلياته، لأن كل مجال للصراع بين الإرادات يمكن أن تبحثه سيمياء التطويع وتكشف عن خلفياته. غير أن المقومات الأساسية يمكن أن تتمثل في مايلي:

- مقومات ذاتية يمتلكها المطوِّع، تتمثل في كل ما من شأنه أن يحقق القدرة على الفعل

التطويعي، وفي مجال بحثنا هي التي تجعل الشاعر يختار بين الإظهار أو الإضمار وهو يبدع نصه التطويعي.

•مقومات مساعدة للذات المطوِّعة كي تحقق فعلها التطويعي، كالإخفاقات التي يعاني منها الطرف المطوَّع، أو الظروف المحيطة بفعل التطويع.

•مقومات متعلقة بالطرف المطوَّع، وهي كل ما يمنع الطرف المطوَّع من الممانعة لفعل التطويع.

إضاءة ثالثة: في خطاب الثورة

خطاب الثورة هو الخطاب الذي يحمل دلالة الرفض لما هو سائد، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ويدعو إلى الثورة عليه. ويمكن تلمسه في الإبداع الأدبي شعره ونثره، ولكن الشعر بطبيعته الغامضة، يكون دائما مجالا أرحب، يتسرب منه هذا الخطاب، عبر ملفوظاته الرامزة، وأيقوناته الدالة. بخلاف النثر الذي يتسم عادة بالمباشرة. مما يجعله أقل حظا في حمل خطاب الثورة.

وتتجلى في خطاب الثورة الإرهاصات الأولى لكل تغير محتمل في مجتمع ما. ولا سبيل لاسترجاع الذاكرة ومعرفة أسباب الثورة وخلفياتها إلا بالبحث في سجل الكلام،إذ «الشعر هو تسجيل ردود فعل الإنسان في مواجهة الحياة » ،وقد كان الشعر التونسي المعاصر فضاء رحبا عبّر من خلاله الشعراء عن رؤيتهم للواقع، واستشرافهم للمستقبل، خصوصا وأن سفينة الحكم تريد أن ترسو بهم بعيدا عن نخل تونس وأصالتها.

إضاءة رابعة: في اتجاهات الشعر التونسي المعاصر وعلاقتها بخطاب الثورة

يرصد الدارسون مجموعة من اتجاهات الشعر التونسي المعاصر كان لها زمام السبق في التأسيس لخطاب الثورة، وأهمها:

• الاتجاه الواقعي:مع حركة الطليعة « ظهرت الدعوة إلى التجريب » ، حيث يمارس الإبداع بطرق جديدة ، يتم فيها تجاوز الأشكال المألوفة من طرق التعبير، وما يتبع ذلك من تجاوز لطرق التفكير، فحرية الإبداع لا حدود لها، والشعر يجب أن يحمل قضية، وأن يلامس الواقع ويتمرد عليه.

ويعتبر الطاهر الهَمّامي من روّاد هذا الاتجاه ومؤسسيه. إذ بعد انحسار مدّ الطليعة 1972م

أسّس مع سميرة الكسراوي و محمد معالي الاتجاه الواقعي سنة 1983م.
وقد اتخذ هذا المنحى من فكرة الثورة محورا لأعماله الإبداعية. فشعر سميرة الكسراوي في مجموعتيها " بلاغات في الرفض والحرية والرصاص " و" ملحمة الموت والميلاد في شعبي" يدور حول الشعب المظلوم، والسلطان الظالم، والحاضر الحالك والغد الأفضل، والتغيير الحتمي، وغير ذلك ..

أما الطاهر الهمامي فقد اتخذ من الواقع بكل تناقضاته مرجعا لأعماله، مع نضج فني، يتخذ من العادي واليومي والعامي مادة لخطابه الشعري. ومن ذلك قوله :

مُتْ محني الظهر على القفة
ما بين رؤوس البصل
مت محني الظهر لا تَصِح...
مت محني الظهر على الجمر وعش بنواة التمر ولا تسأل.

•التوجه الكوني: وهو التوجه الذي سعى إلى « خلق فعالية جمالية ثورية، لا يكون الشعر بمقتضاها تابعا للفعل لأنه في حدّ ذاته فعل» ، أي أنهم لا يريدون من الشعر أن يكون ردود أفعال، بل هو رؤية وتوجه. وعرفوا الشعر الحقيقي بأنه « الشعر الذي يستوعب لحظته التاريخية، ولكنه في الوقت نفسه يكون قادرا على الإفلات منها، ليتنزل في منزلة الملحمة الخالدة» ، وبذلك أولوا الأهمية للناحيتين الفنية والمضمونية. ومن روّاد هذا التوجه: المنصف الوهابي ، ومحمد العزي .

•الريح الإبداعية الثالثة: يعتبر منصف المزغني مؤسس هذا التوجه كبديل عن المنحى الواقعي والمنحى الكوني. وقد استطاع تحويل الواقع المأزوم قطريا وعربيا « إلى صور شفافة مبتكرة تحمل طعم الواقع دون أن تسقط في الخطابية الجافة والتقريرية الفجة» .

ومن رواد هذا التوجه: محمد بن صالح صاحب " المواسم "، و محمد العوني صاحب " مملكة القرنفل "، وآدم فتحي صاحب " سبعة أقمار لحارسة القلعة " و " أناشيد لزهرة الغبار ".

• الاتجاه القومي: و يتخذ من الواقع العربي مدارا لشعره. ومن المقارنة بين الأوضاع الراهنة المتردية، والمجد الغابر المشرق دعوة لاستعادة تلك الأمجاد، و محاولة تغيير ما هو

قائم. ومن بين رواد هذا التوجه: علي دب في مجموعته " تعجلت الفرح "، وحسين العوري في " ظمأ الينابيع "، وعبد المجيد الجمني و بوجمعة الدنداني في مجموعتيهما " من هنا تبدأ الملحمة "، والميداني بن صالح في رائعته " وحام ".

إضاءة خامسة:في الوظيفة الثورية للقصيدة

مَثّلت الوظيفة الثورية للقصيدة هاجسا عند العديد من الشعراء التونسيين المعاصرين، وفي نظرهم أن التحولات الشكلية التي رافقت بناء القصيدة لا قيمة لها إن لم تحمل هواجس الثورة واستعادة كرامة الإنسان.

ويعتبر آدم فتحي ممّن ركّز على هذه الظاهرة، وجعلها منطلقا لمساءلة الواقع، وذلك « بالتركيز على الوظيفة النقدية والخطابية للقصيدة، مزاوجا بين القوالب الشعرية الجديدة ورفض القيم السياسية التي امتهنتها » .

يقول في قصيدته " نشيد الحداثة "

لم تحدّثني الحداثة في مساربها بشيء يا غباري
لم تضمد جرح أشعاري
ولم تكسر عصا الشرطي
إن هدمت مدينته جداري
لم تَحِنّ عليّ
مصلوبا على أعتاب داري.

وبذلك فالقوالب الشعرية المستحدثة والتي حطمت قالب القصيدة العمودية، إن لم تحطم قوالب الأنظمة وأنظمة الفساد فلا معنى لها. ومنه تغدو القصيدة الحقة في نظره سلاحا تطويعيا.

إضاءة سادسة:الثورة خطاب مباشر

ويتجلى الخطاب المباشر للثورة، في النماذج الشعرية التي عبّر فيها الشعراء عن مكنونات نفوسهم،باستخدام ألفاظ ذات علاقة مباشرة بالثورة، ولا تتطلب التفسير

والتأويل.ويلجأ الشاعر إلى هذا النوع من الخطاب إذا بلغت به الجرأة حدّا لا يخاف بعده ما سينجر عنه من مصاعب أو متاعب، نظرا لطبيعة الوضع الذي لم يعد فيه ما يمكن احتماله.

يستوعب خطاب الثورة المباشر هموم الناس وقضاياهم، مهما تعددت توجهاتهم السياسية وطبقاتهم الاجتماعية. ويتخذ من العادي واليومي أسلحة يعري بها جور الحكام، وتعفن الأوضاع، والطموح إلى التغيير.

ويمكن أن نذكر كنموذج على ذلك، الشاعر التونسي جعفر ماجد، الذي تَحْمِل قصيدته " الأصنام" بذور الثورة على الوضع القائم بطريقة مباشرة في مناجاته لمدينته القيروان، وبثّه إياها أشواق نفسه وآمال روحه. في غنائية يَحْدُث فيها التماهي بين ذات الشاعر وآمال الجماهير، التي سئمت الأوضاع، وتحلم بيوم تصير القيروان مدينة للحرية وإشراق الذات، بدل أن تكون حقل أموات.

يقول في أحد مقاطع قصيدة " الأصنام" ، التي يحمل عنوانها ضرورة الثورة على كل ما يمثل صنما، والدعوة إلى تحطيمه:

يا قيروان وأنت العز موطنه
ماذا أُحدِّث عن أهل الخيانات
عن الذين أبادونا بنارهم
لينصبوا عرشهم في حقل أموات
أم الذين أضلتنا وعودهم
وخدرونا بأبواق ودعايات؟
أم من مشوا في دروب غير مفضية
وأودعوا السجن أرواحا بريئات؟
وأسكتوا كل صوت غير صوتهم
وذكّروا الناس بالعزى وباللات.

وملفوظات الثورة بادية في هذا المقطع، ودالّة على التذمّر، والدعوة إلى الثورة، ولذلك تحوّل شعر جعفر ماجد خصوصا في مجموعته "الأفكار" إلى « ضرب من التفكير السياسي في

أوضاع الأمة العربية الراهنة، ومستقبلها،يكشف عن إيمان بضرورة الحل الثوري ونجاعته » . ويقول في مقطع آخر من مطولته " الأصنام" :

ذلّ المديح وذلّت كل قافية
لم تنفجر مثل ألغام العصابات
رصاصة الحرف إن سدّدت طلقتها
تطوي العصور وتجتاز المسافات
وفي عيون طغاة الأرض عاصفة
نثيرها نحن قبل الانقلابات.

وهذا المقطع يطفح بالثورة على الوضع القائم، و« يبلغ بهذه الأبيات أوج الرفض والتنديد برموز يراها تجسد الخيانة والغدر والطغيان، دون أن يضحي بجمال القصيدة وروائها وروعة آدائها » .

وريادة الشعراء أزلية في حمل لواء التغيير. والثورة قبل أن تتجسد في الواقع تكون هاجسا للشعراء، فهم من يثيرها قبل الانقلابات على حدّ تعبير الشاعر.

إضاءة سابعة: الثورة خطاب ساخر

تُمثّل السخرية كخطاب « البنية العميقة للقصيدة، وتكشف عن المفارقة الصارخة بين المنشود والموجود، وما اهتمامنا بالموجود إلاّ لشرحه شرحا ساخرا بالكشف عن طواياه وخفاياه المفارِقة لظاهره بواسطة اللغة الواصفة» .

وتهدف السخرية إلى استثارة الشعور الذي تبلّد من تأزمات الواقع، ولم تعد قرون الاستشعار قادرة على الكشف والإحساس، ولذلك قيل: إن شر البلية ما يضحك.

والخطاب الساخر سريع الانتشار بين الناس، وهو ما يجعل الشعراء يتخذونه مطية لتبليغ آرائهم ونشرها.

ويهدف الخطاب الساخر إلى كسر الطابوهات، وتعرية السلوكات وخصوصا ما تعلق بالسياسة، وإنزال شؤون الحكم من ردهات القصور إلى أروقة المقاهي، ومن انشغال الخاصة إلى اشتغال العامة.

ومن أمثلة النصوص الشعرية التي اشتغل أصحابها على المفارقة الساخرة، للتعبير عما يحدث في عالم السياسة من غرابة. يقول المنصف المزغني في قصيدة " ثغاء " :

خروف
دخل البرلمان
قال:
ماعْ
فجاء الصدى
إج...ماعْ

وفي القصيدة « أكثر من مفارقة،فأول حدث عجيب في النص هو دخول الحيوان للبرلمان، وإطلاق صوته بالثغاء. وأما كبرى المفارقات فهي هذا التجاوب بين صوت الحيوان وصوت الإنسان الذي انتخب لتمثيل الشعب. إن التقفية بالصوتين المتماثلين في السطرين الرابع والسادس يولد أقصى درجات الهزء والسخرية بسبب استحالة الصوت البشري للنائب المشارك في عملية التصويت صوتا حيوانيا. » . والجمع بين الخروف وصاحب الصدى في البرلمان (مؤسسة التحاور الديمقراطي المفترضة)، يُشعر أن هذه المؤسسة أفرغت من محتواها، وأصبح يُنتدب لها النائب الذي لا يعبر عن حقيقة ما يجب أن يكون أو يقال، وإنما موقفه وقوله صدى لصوت آخر يُمْلِي عليه المواقف والآراء.

إن هذا النص الوجيز يحمل من التكثيف الساخر ما يدعو إلى رفض هذا الواقع وضرورة تغييره.

ومن ديوان منصف المزغني ـ الذي برع في الإلماعة السياسية الساخرة ـ"محبات " يمكن أن نقتطف قوله :

بقرار
"... الشواربْ
مُنعتْ "
نبتت في القلب لحية.

هو خطاب ساخر يلفت الانتباه إلى أن ما منع في الظاهر يؤسس لثورة في الباطن.

إضاءة ثامنة: الثورة خطاب رمزي

لئن كان اختيار بعض الشعراء الخطاب المباشر في غنائية تحقق التواصل بين المبدع والمتلقي دون وسائط، فإن البعض الآخر آثر الاشتغال على الرمز وما يتيحه من غموض فني ومدى إبداعي، يجعل لحظة المكاشفة الشعرية أشبه ما تكون من إطلالة على مدار من مدارات الرعب على حدّ تعبير محمد لطفي اليوسفي. وهو ما يجعل الشاعر يبث رؤاه وأفكاره بطريقة إيحائية عبر الرموز التي يصنعها، والأقنعة التي يلبسها، أو الصور الفنية التي ينسجها.

ومن النماذج التي استحضرت الرموز واشتغلت عليها يمكن أن نذكر:

- تجربة محمد العوني التي اشتغل فيها على الرمز لتعرية الواقع، ففي مجموعته " مملكة القرنفل " يجعل الخطاب موجها إلى عوالم هذه المملكة، التي ما هي إلاّ معادل موضوعي لمملكته الواقعية التي يعيش فيها، يبثها أحلامه وآلامه، ويؤسس بعلاقته الحميمة مع عناصرها عوالم الرفض. ومن ذلك قوله :

وأقسم باسم الزنابق في كل شبر
بأن الدماء التي
قد سقتك
سترفع عنا حصار الخنادق
وتأتي النوارس
تحمل بذر رياح اللقاح
وتمسح رائحة الموت من فوق كل المشانق

- وفي مطولة عادل معيزي" أمس منذ...ألف عام أو فصول في سرداق الموت" ، التي أدرجت ضمن ديوان الجاحظية لفوزها بجائزة مفدي زكريا المغاربية للشعر، يستحضر الشاعر العديد من الصور والرموز، لعل أبرزها دعوته للورد أن يثور. يقول في ذاك :

حاصروني بالغمائم
حاصروني بالقبور

ببقايا من عظام وجماجم
تائها صرت بلا حُلْم يواسيني
ولا سرو يناديني
ولا ورد يثور.

وقد تكون ثورة الياسمين مستمدة من ثورة الورد، التي حلم بها الشاعر يوما، إذ القصيدة تعود إلى التسعينيات من القرن الماضي.

إضاءة تاسعة: الثورة خطاب تناصي

يعمد الشاعر المعاصر إلى إغناء نصه الشعري بجملة من النصوص والأحداث والوقائع على سبيل التناص. وفي ذلك الاستدعاء دعوة إلى ضرورة استعادة تلك الوقائع والأحداث على أرض الواقع كما استدعاها الشاعر على مستوى النص. ومن النصوص الشعرية التي تحمل معنى الثورة كخطاب تناصي، يمكن أن نذكر:

- الميداني بن صالح في مجموعته الشعرية " وحام " الذي أبدع في الجمع بين الرمز والتناص في تصوير الأوضاع المتردية في بلده تونس.

ويمكن أن نقرأ الواقع التونسي من خلال "وحام" باستنطاق العلامات المبثوثة فيه. وتنشأ في هذا الديوان ثلاثة محاور للتواتر؛ محور الحمل، ومحور التوالد، ومحور البعث.

وقد توصل الكاتب التونسي أحمد الوردني إلى جملة أنواع من العقم أصابت الحياة التونسية من خلال " وحام "،عقم سياسي، وعقم اجتماعي وعقم اقتصادي. ولذلك أسباب داخلية تتمثل في عقم الزعامة السياسية. وأسباب خارجية تتمثل في استهداف الوطن. ولا سبيل للنجاة إلا بزوال العقم .

يقول الميداني بن صالح من ديوانه " وحام "

كل الحرائر عشن شهور الوحام ولا حبل
فالرجال بأرض العروبة أصلابهم ساطها العقم.

ويتمنى أن يكون هذا الواقع « مثل حلم كذوب» .

ويؤسس الميداني بن صالح نصه في " وحام " على أبعاد تناصية، ترشح بفعل

الثورة كخطاب مضمر. ومن ذلك هذا المقطع الذي يأخذنا إلى تناصات ووقائع وأحداث غائرة في التاريخ، حيث مملكة سبأ :

ذو نواس يخون
يهون، يذل أسيرا مطيعا..
يتمرد ذو يزن ويثور..
يثور وثورته دون طائل.

إضاءة عاشرة: الثورة خطاب مضمر

بالنظر إلى النصوص الشعرية السابقة وغيرها، فإن الوضع التونسي قبل ما اصطلح على تسميته بالربيع العربي، يتميز بالتناقض بين ماهو قائم وواقعي، وما هو مرغوب ومأمول. وظاهر الوضع القائم يوحي بالاستقرار لسنين طويلة، ودفة الحكم تدار ظاهريا بطريقة سلسة، جعلت تونس قبلة السياسة والسياحة. ولكن ماهو مضمر خلاف ذلك، فقطاع عريض يعاني التهميش والإقصاء، ومن يخرج عن الطوق المرسوم يكون مصيره التهجير أو السجن أو كتم الأنفاس.

وهذا الوضع عبّر عنه الشعراء بطرق مختلفة وأساليب متباينة. غير أن المستفيدين من النظام القائم كانوا يوهمون العالم وأساطين السلطة بأن أركان النظام ثابتة، ولا شيء خلاف ذلك، وأن المعارضة (الشكلية) يكفي أن تكون ديكورا للديمقراطية.

وهذا التناقض بين إرادة قطاع عريض من الشعب وإرادة النظام ولّد المناخ المناسب للثورة.

وذلك ما يمكن بيانه بالمربع السيميائي، إذ « يمكن استخدام المربع السيميائي لإبراز مواضيع تحتية مستترة في نص أو ممارسة » .

الوضع القائم (استقرار النظام)	تضاد استبدال النظام القائم
الوضع المرغوب	
تضمن تثبيت أركان	تناقـض تضمن

النظام القائم تضاد الثورة على النظام القائم

وعليه فالاستقرار الواقعي كان مجرد وَهْمٍ، تنبأ الشعراء بزيفه وضرورة الثورة عليه.

إضاءة حادية عشر:الثورة خطاب تطويعي

إذا اعتبرنا الثورة الشعبية التونسية التي عرفت بثورة الياسمين نصّا أسّس له الفعل الإبداعي والسياسي...، وتحقق بالحراك الشعبي، فإن هذا الفعل الثوري تميّز بالتطويع، « كونه فعلا ممارسا على الآخر لحثّه على تنفيذ برنامج معين» ، ولهذا الخطاب التطويعي دور أساسي في تحديد العلاقات. ويمكن الكشف عنها بتطبيق النموذج العاملي لقريماس ((Algidas Greimas ، ذلك أن النجاح الباهر للثورة في ما يتعلق بشعارها الأساسي " الشعب يريد إسقاط النظام " لم يتحقق إلا بتضافر مكونات النموذج العاملي.

إن ما جعل فعل التطويع يَحْدُثُ هو الرغبة التي تأكدت بين الذات والموضوع، فالشعب يريد تغيير النظام، وما دام يريد ذلك فلا أحديمكنه أن يوقف هذه الإرادة، خصوصا وهو يمثل قول الشّابّي إذا الشعب يوما أراد الحياة. والذي جعل الرغبة تتحقق هو علاقة التواصل بين المرسل والمرسل إليه. أما الذي سهّل ذلك فهو تغلب إرادة المساعدين على سعي المعارضين، وكل هذه العلاقات كان الشعر فضاء للتعبير عنها سواء بصيغة الإظهار أو بطريقة الإضمار، مما جعله خطابا تطويعيا، ساهم بشكل أو بآخر في تغذية الصراع وتحقيق فعل الثورة التطويعي.

خاتمة ونتائج:

إن سؤال الشعر يَطرح دائما سؤال تشكله وتلقيه، سؤال بواعثه وهواجسه. ولذلك عُدّ الشعر خطابا، يبوح بمقدار ما يقترب منه القارئ، ويستتر ويمتنع بمقدار ما يبتعد عنه.

وفي محاولتنا استجلاء خطاب الثورة في الشعر التونسي المعاصر تبين لنا أن الثورة التي عصفت بالنظام لم تكون وليدة طفرة تاريخية، وإنما هي امتداد لأوضاع كانت منذرة بحدوثها. وقد حاول الشعراء التعبير عن ذلك كل بطريقته الخاصة. فالتعبير بالهرم وما يصحبه من معاناة يجعل أحد المتأثرين بهذا اتلفعل التطويعي يطلق عبارته التي أصبحت بمثابة مثل" " لقد هرمنا من أجل هذه اللحظة التاريخية ". وهذا التعبير نجده عند عبد العزيز الحاجي في

ديوانه" غميس اليمام" ، إذ يقول واحدة من لقطاته التأملية:

إني أهرم
طائر جميل يختفي
في غيمة الخريف.

وعليه فأهم النتائج التي يمكن التوصل إليها تتمثل في مايلي:

- ثورة الياسمين التي قلبت النظام، وغيرت الوضع، وأسست لوضع جديد، لم تكن وليدة حادثة معزولة، تمثلت في إضرام البوعزيزي النار في جسده، لتمتد الثورة إلى كل بيت تونسي، وتتعداه إلى جل الأقطار العربية. إنما جذر الثورة المخفي ممتد في كل بيت، وعوامل الثورة وأسبابها متجذرة في كل صقع، و لا ينتظر الوضع إلا القطرة التي تفيض الكأس، أو القشة التي ستقصم الظهر، أو الشرارة التي ستندلع بموجبها الثورة.
- خطاب الثورة هو الخطاب الذي يحمل دلالة الرفض لما هو سائد، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ويدعو إلى الثورة عليه. وقد كان النص الشعري التونسي المعاصر والذي قيل قبل الثورة غنيا بهذا الخطاب.
- الشعور بمرارة الوضع عبّر عنه الشعراء التونسيون، ولامسوا مختلف حيثياته، بحثا عن واقع أفضل وفضاء أرحب للحياة والإبداع.
- الثورة باعتبارها خطابا تعددت مظاهره، وكل مظهر أدّى الدّور الذي يناسبه.
- كان خطاب الثورة مباشرا في النصوص الشعرية التي اعتمد أصحابها شعرية التقرير، والتعبير بألفاظ تتخذ من اليومي والعادي ومألوف الكلام وسيلتها في التواصل بين الشاعر وجمهور المتلقين.
- اتخذ خطاب الثورة طابعا رمزيا له من التكثيف والغموض الفني ما يغري بالبحث والقراءة، فيغتني النص بأبعاد جمالية وأخرى تواصلية ذات قيمة ثورية.
- كان للسخرية كخطاب حضور فني، يعبر عن الواقع ويكسر الطابوهات، ويؤسس لفعل الثورة.
- تضافرت في خطاب الثورة جملة عوامل جعلته خطابا تطويعيا، تحقق بموجبه شعار

الثورة " الشعب يريد..."

- سمحت لنا سيماء التطويع بالبحث في البنية الخفية للشعر التونسي باعتباره خطابا حمل طموح الجماهير وعبَّر عن آلامها وآمالها من خلال النصوص الشعرية التي قيلت قبل أن يحقق الفعل التطويعي غايته.
- سيماء التطويع مجال بحثي يتطلب فتح نوافذ قرائية له سواء على مستوى التنظير أو التطبيق.

ويبقى خطاب الثورة في الشعر التونسي المعاصر مجالا خصبا للدراسة، وهذه مجرد إضاءات سريعة لبعض جوانبه، وكل توفيق من الله وحده.

الهوامـــش والمراجـــع

ـ جابر عصفور: « الشعر ووعد المستقبل»، مجلة فصول، عدد1 مجلد16، صيف 1997م، الهيأة المصرية العامة للكتاب، مصر، ص05.

ـ محمد الداهي: « سيمياء التطويع»، عالم الفكر، مجلد40، عدد01، يوليو سبتمبر 2011م،المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص106.

ـ المرجع نفسه، ص 106.

ـ المرجع نفسه، ص106.

ـ محمد الربيعي: « الشعر والنقد »،مجلة فصول، عدد1 مجلد16، صيف 1997م، الهيأة المصرية العامة للكتاب، مصر، ص 278.

ـ يوسف ناوري: الشعر الحديث في المغرب العربي، الجزء الثاني، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006م، ص16.

ـ مجموعة من الباحثين: تاريخ الأدب التونسي الحديث، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، تونس، 1993م، ص193.

ـ الطاهر الهمامي: صائفة الجمر، شركة بيرم للنشر، تونس، 1984م، ص 5.

ـ مجموعة من الباحثين: تاريخ الأدب التونسي الحديث ، ص 195.

ـ المرجع نفسه، ص196.

ـ المرجع نفسه، ص 198.

ـ يوسف ناوري: الشعر الحديث في المغرب العربي، الجزء الثاني، ص27، 28.

ـ آدم فتحي: أناشيد لزهرة الغبار، دار الأقواس للنشر، تونس، 1991م، ص41،40.

ـ جعفر ماجد: الأصنام، نقلا عن مهرجان الشعر العربي الحديث بتوزر، في الشعر التونسي الحديث الجزء 2، منشورات اتحاد الكتاب التونسيين، تونس، ط1،2005م، ص124،123.

ـ مجموعة من الباحثين: تاريخ الأدب التونسي الحديث، ص 109.

ـ جعفر ماجد: الأصنام، المرجع السابق 124.

ـ صلاح الدين بوجاه: ريادة الشعر التونسي قراءة في شعرية جعفر ماجد والميداني بن صالح، ضمن أعمال مهرجان الشعر العربي الحديث بتوزر، مرجع سابق، ص 124.

ـ خالد لغريبي: الشعر التونسي المعاصر بين التجريب والتشكل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، صفاقس، تونس،ط2005،1م، ص35.

ـ منصف المزغني: حبّات، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 1992م، ص49.

ـ أحمد الجوّة: من الإنشائية إلى الدراسة الأجناسية، قرطاج للنشر والتوزيع، صفاقس، تونس،ط1، 2007م، ص297.

ـ منصف المزغني: محبّات،الشركة التونسية للنشر وتنمية فن الرسم، تونس، 2003م، ص27.

ـ محمد العوني: مملكة القرنفل، ديميتير للنشر، تونس، 1984م، ص29.

ـ عادل معيزي: قصيدة أمس منذ ألف عام أو فصول في سرداق الموت، ضمن منشورات التبيين، الجاحظية، قصائد جائزة مفدي زكريا للشعر،1990ـ2006 م، الجزائر، ص 131،132.

ـ ينظر: صلاح الدين بوجاه، ريادة الشعر التونسي قراءة في شعرية جعفر ماجد والميداني بن صالح، ضمن أعمال مهرجان الشعر العربي الحديث بتوزر، مرجع سابق، ص 128، 129 .

ـ المرجع نفسه، ص 129.

ـ المرجع نفسه، ص 129.

ـ الميداني بن صالح: وحام، دار الرياح الأربعة للنشر، تونس، 1985م، نقلا عن : تاريخ الأدب التونسي الحديث، مرجع سابق، ص205.

ـ دانيال شارلز: أسس السيميائية، ترجمة طلال وهبة، مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت، لبنان، ط1، 2008م، ص29.

ـ محمد الداهي: « سيمياء التطويع»، عالم الفكر، مجلد40، عدد01، يوليو سبتمبر2011م،المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص106.

ـعبد العزيز الحاجي: غميس اليمام، الأطلسية للنشر، تونس،1997م، ص 9.
أولا: الدواوين الشعرية
1 ـ آدم فتحي: أناشيد لزهرة الغبار، دار الأقواس للنشر، تونس، 1991م.
2 ـ الطاهر الهمامي: صائفة الجمر، شركة بيرم للنشر، تونس، 1984م.
3 ـ عادل معيزي: قصيدة أمس منذ ألف عام أو فصول في سرداق الموت، ضمن منشورات التبيين، الجاحظية، قصائد جائزة مفدي زكريا للشعر،1990ـ2006 م، الجزائر.
4 ـعبد العزيز الحاجي: غميس اليمام، الأطلسية للنشر، تونس،1997م.
5 ـ محمد العوني: مملكة القرنفل، ديميتير للنشر، تونس، 1984م.
6ـ منصف المزغني: حبّات، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 1992م.
7ـ منصف المزغني: محبّات،الشركة التونسية للنشر وتنمية فن الرسم، تونس، 2003م.
8ـ الميداني بن صالح: وحام، دار الرياح الأربعة للنشر، تونس، 1985م.
ثانيا:الكتب
11ـ أحمد الجوّة: من الإنشائية إلى الدراسة الأجناسية، قرطاج للنشر والتوزيع، صفاقس، تونس، ط1، 2007م.
12ـ خالد لغريبي: الشعر التونسي المعاصر بين التجريب والتشكل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، دارالهدى للطباعة والنشر والتوزيع، صفاقس، تونس،ط2005،1م.
13ـ دانيال شارلز:أسس السيميائية، ترجمة طلال وهبة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2008م.
14ـ مجموعة من الباحثين: تاريخ الأدب التونسي الحديث، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، تونس، 1993م.
15ـ يوسف ناوري: الشعر الحديث في المغرب العربي، الجزء الثاني، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006م.
المجلات والدوريات
16ـ أعمال مهرجان الشعر العربي الحديث، الدورة 25 بتوزر،في الشعر التونسي الحديث،

جزء2، منشورات اتحاد الكتاب التونسيين، تونس، 2005م.
17ـ مجلة عالم الفكر، مجلد40، عدد01، يوليو سبتمبر2011م،المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
18ـ مجلة فصول، مجلد16، عدد01 ، صيف 1997م، الهيأة المصرية العامة للكتاب، مصر.